مجلة لفهم رسالة فرنجية

الزعامات التقليدية
الرابح الاكبر من "الحرب اللبنانية"

بقلم: مصطفى مراد

مع اعلان رسالة الرئيس فرنجية الى اللبنانيين ، فان البرجوازية الاسلامية كانت الرابح الاكبر من حرب العشرة اشهر ، وهي سجلت اعظم « انتصارات » في تاريخها منذ سنة ١٩٥٨ • وبفضل تضافر مجموعة من الظروف ، اهمها فشل مشروع التصفية اليميني ، وعجز الجماهير الوطنية عن خلق تنظيماتها الثورية ، الى جانب سيطرة خط المساومة مع الولايات المتحدة على صعيد الانظمة العربية ، فان تسوية ١٩٧٦ لا تختلف كثيرا عن تسوية الـ « لا غالب ولا مغلوب » ، سوى في ضخامة وتعقيد المشاكل التي لن يطول الوقت حتى تنبعث من جديد ، وفي افتقاد العنصر « المحايد » الداخلي المتمثل في جيش ١٩٥٨ وفي قيادة فؤاد شهاب •

واهم التغييرات التي استحدثتها « الرسالة – وثيقة » ، حسب التعبير الصحفي الشائع ، تنص على توزيع المقاعد النيابية مناصفة فيما بين الطوائف الاسلامية والمسيحية ، وانتخاب رئيس الوزراء بالاكثرية النسبية من اصوات مجلس النواب ، واصدار جميع مراسيم القوانين باتفاق بين رئيسي الجمهورية والحكومة وعلى تحمل توقيعهما معا • والاثر المباشر لهذه التغييرات هو تعزيز حجم البرجوازية الاسلامية ضمن الجبهة السياسيه للنظام ، وتعزيز موقع ممثلها الرئيسي في الحكم ، رئيس الحكومة ، تجاه رئيس الجمهورية الذي يمثل قمه البرجوازية المسيحية الحاكمه ، وبالتالي تقليص قدرة الجناح المسيحي من الطبقة الحاكمة على التصرف دون استشارة الجناح الاخر ، ولجمه عن الدخول في مغامرات لا تستند الى حسابات واقعيه ، عدا انها تحرج شريك الاسلامي ، وتضع النظام كله في كف العفريت •

وبذلك يمكن القول ان شعار « المشاركة » الذي رفعته القيادات التقليدية الاسلامية منذ تشكيل الجبهة الوطنية امين الحافظ في ١٩٧٣ قد دخل الان حيز التنفيذ ، وان هذه القيادات كرست مكانتها كطرف داخلي لا سبيل الى تجاهله وكركيزة داخلية للسياسات السائدة على الصعيد العربي • لقد اعلن الجناح المسيحي من الطبقة الحاكمة اعترافه بسقوط برنامجه لتصفية حركه الجماهير وسحق المقاومه ، بعد انهيار الجيش وتخوف الولايات المتحدة واسرائيل من التدخل الصريح والمباشر • فلم يكن امامه من خيار عدا الاستمرار في معركة انتحارية او القبول باحداث تعديل في ميزان القوى الداخلي (ضمن الطبقه المسيطرة) وفي موازين النفوذ الخارجي لصالح الطرفين الاكثر اعتدالا : القيادات الاسلاميه والنظام السوري •

والقيادات التقليديه الاسلاميه التي عرفت كيف تستفيد من تراجع عبد الناصر في ١٩٥٨ واتجاهه الى الوفاق مع الاميركيين (خانت فترة ١٩٥٨ – ١٩٦١ فترة علاقات حسنه بين الجمهوريه العربية المتحدة واميركا) والتي وجدت في الحكم الشهابي المتطاول الى عهدين رئاسيين مجالا رحبا لتعزيز مكانتها في النظام ، تراهن اليوم على « خط المواجهة الاقوى » حاليا على الصعيد العربي – اي الخط السوري – وعلى حاجه النظام اليها لاعادة بناء « الدوله » اللبنانية • بالمقابل ترحب الاطراف العربية « الوسطيه » بهذه الزعامات التقليدية كخيار « وسط » بين الاتجاهات الاكثر جذرية للمقاومة الفلسطينية والاتجاه الساداتي ذي الهوية الاميركية الصريحه • وهكذا يمكن القول ان هذا التحالف الجديد يوفر نموذجا لما سوف يستتبعه الخط « الوسطي » في التعامل مع الامبريالية على صعيد مصالح الجماهير العربيه وطموحها للتغيير السياسي • ومن هنا ، فان الاستاذ كمال جنبلاط اصاب نقطه جوهريه حين قال : « يهمنا الا يكون موقف الحركة الوطنية والحزب التقدمي الاشتراكي مرتهن في المستقبل بأيه تسويه سياسية ••• » !

وفي مجال الحديث عن مكاسب القيادات الاسلامية لا بد من التأكيد على شمول هذه المكاسب القيادات الشيعية التي ظلت حتى الان تمثل مرتبه ثانوية تلي مرتبة زعماء الموارنة والسنه • لقد استندت هذه القيادات الى تحركات جماهير الجنوب والبقاع والضواحي الشيعية والى صمودها الرائع في زمن القتال لتستخلص من النظام اعترافا بشرعيتها وبضرورة اشراكها في واجهة الحكم وفي مراكز الحسم ضمنه •

تبعا لذلك فان النقاط « الاصلاحية » من رسالة فرنجيه تمثل جوهر البرنامج « الشهابي الجديد » الذي تطمح القيادات الاسلامية الى تطبيقه • وعدا الاصلاحات ضمن بنية الطبقة المسيطرة فان الرساله تضمنت اقتراحات اصلاحات ادارية وتشريعية واقتصادية واجتماعية : اعتماد اكثرية الثلثين لاقرار المشاريع المصيرية في مجلس النواب ، وتعزيز استقلال القضاء وانشاء محكمة للنظر في دستورية القوانين ، ووضع نص يجعل رئيس الجمهورية ورئيس الوزراء والوزراء مسؤولين ، وانشاء المجلس الاعلى لمحاكمة الرؤساء والوزراء ، اضافة الى ازالة الطائفية في الوظائف واعتماد مبدأ الكفاءة مع المحافظة على المساواة في وظائف الفئة الاولى • ان المغزى الاساسي لهذه المشاريع هو اعادة الاعتبار الى البرلمان والقضاء باعتبارهما من مرتكزات النظام الرئيسية ، والدفاع عن النظام في وجه التشهير الشعبي بفساد الحكم

جنبلاط : ضاعت فرصة ذهبية

فرنجية : متهم بتزوير التاريخ

وعقم الادارة • وتساوي هذه الاصلاحات نوعا من التجميل المحدود لادارة باتت اكثر من « عارية » لكثرة ما نسب اليها من فضائح •••

خطوة الى الوراء

ويبقى ذلك البند الذي اثار اكبر قدر من الجدل قبل وبعد اعلانه ••• البند المتعلق بتكريس طائفية الرئاسات الثلاث ، او بتكريس رئاسة الجمهورية للموارنة • اننا لن نأتي بجديد اذا اكدنا هنا ان هذا التكريس المكتوب للعرف (« تكريس العرف كتابة » هو حل وسط « لبناني » نموذجي بين التمسك « بالعرف » والاصرار على « الكتابة ») يوازي خطوة كبرى الى الوراء بالمقارنة مع سنة اعلان الميثاق الوطني في ١٩٤٣ ، اي قبل ٣٣ عاما • وهنا لا مجال للاستغراب : ان النظام الطائفي يتطور مع الزمن باتجاه عكسي • فالطائفية تنمي الطائفية وتضخمها • اي ان النظام يعيد انتاج نفسه ، وعلى نحو مضخم وموسع •

لكن المرء لا يملك الا ان يلاحظ اللعبة الكامنة في ادراج هذا البند ضمن الوثيقة ، بل وفي جعله اول البنود • فلا يملك شخص عاقل في الواقع ان يدعي ان احدا كان يريد انتزاع الرئاسة من الموارنة • والحقيقة ان الرئيس فرنجية اراد ان يصيب عصفورين :

١ – اضفاء الطابع الطائفي الخالص على الحرب الاهلية بتصويرها صراعا حول طائفية الرئاسات ، وبالتالي تحميل الطرف « الاسلامي » و « الوطني » مسؤولية القتال •••

٢ – الايحاء للجمهور المسيحي والماروني انه – اي فرنجية – حافظ على الرئاسة للمسيحيين والموارنة •

ولا شك في ان فرنجية بحاجة الى هذا التبرير بعد ان بدأت ترتفع اصوات الالوف من المواطنين المسيحيين المتضررين الذين يتساءلون عن فائدة ما حصل ، او يحملون فرنجية المسؤولية كلها •

كالعادة ، اي تبعا لممارسات النظام منذ ولادته ، فان الرسالة تلجأ الى الايجاز والتلميح لدى الحديث عن الاصلاح الاجتماعي والاقتصادي • ان عبارات من نوع « انشاء مجلس اعلى للتخطيط والانماء » او « العمل على تحقيق عدالة اجتماعية شاملة » او « تعزيز التعليم العام » و « تعديل قانون الجنسية » هي كل ما يجود به النظام على الجماهير التي كان النضال الاجتماعي جزءا اساسيا من تحركها خلال السنوات المنصرمة • لكن ذلك يعني ، بالمقابل ، ان المشاكل والقضايا الاجتماعية التي ساهمت في تفجير الازمة لن تلقى سوى التجاهل الذي سيفجرها على نحو اعنف في المستقبل •

ولن ينال الصحافة من « بركات » التسوية سوى القمع ••• والمزيد من القمع • ان جوهر الرسالة هو تقييد الحركة الشعبية اللبنانية والفلسطينية • ولذا فلا بد من تقييد المنابر التي تتيح ، بحكم تنوع اتجاهاتها ، التعبير عن صخب الصراعات الداخلية والعربية • فما زال شعار « الصمت من ذهب » الشعار المقدس للبرجوازيات العربية السائرة باتجاه معاكس لحركة الجماهير •

ردة طائفية

تؤكد الرؤية الشاملة لمعاني رسالة فرنجية انها كرست مكانة البرجوازية الاسلامية ، ودور سوريا لبنانيا ودوليا ، في حين تجاهلت القضايا الشعبية والوطنية الحقيقية • ولا يملك اللبنانيون الذين رحبوا بالرسالة لمجرد انها تعني نهاية المذابح والخراب سوى ان يخلصوا الى الاستنتاجات التالية

● انه لن يصير العمل بهذه الرسالة الا « تبعا لتنفيذ اتفاق القاهرة » ، ويعني ذلك مقاومة الصراعات في الساحة الفلسطينية ، واستمرار محاولات « تحجيم » المقاومة (حسب التسمية الدارجة) بطريقة اكثر دهاء ••• ويلفت النظر هنا ان اشتراط « تنفيذ » اتفاق القاهرة يعادل اعلان الشك في قدرة الخط العربي الوسطي على تثبيت مواقعه فلسطينيا وعربيا • وبالتالي فان امكانية لجوء اليمين الى العنف مرة اخرى مطروحة فعليا ، وتبعا لتطورات الوضع الفلسطيني والعربي •

● ان الحركة الوطنية تدفع مرة اخرى ثمن غياب الحزب الثوري الجماهيري ، والانغماس في ممارسات متخلفة وطائفية • وبفضل هذا العجز الذاتي فان الحركة الوطنية تظل في كل صراعاتها ، ورغم التضحيات الهائلة للجماهير ، اسيرة الواقع اللبناني المتخلف والواقع العربي الذي يعزز فيه اليمين مواقعه •

● ان بشاعة الحرب الاهلية قد تلجم النابن مؤقتا عن المطالبة بحقوقها • لكن هذه الحرب نفسها ، والتسوية التي آلت اليها ، سوف تعزز الصراع الاجتماعي بكل قضاياه التي احتلت مكانة بارزة في المسرح السياسي خلال عهد فرنجية بأسره •

● واخيرا ، واذا كان يجدر بكل الديمقراطيين والوطنيين ، ان يدينوا « الردة الطائفية » التي تضمنتها التسوية بتكريسها طائفية الرئاسات ، فقد غدا واجبا على كل الديمقراطيين والوطنيين كذلك ان يعلنوا موقفا صريحا وتقدميا من قضايا الطائفية على صعيد الاحوال الشخصية ، فلا مفر من الاعتراف بان الزعامات الاسلامية سبقت الكتائب الى رفض العلمنة في هذا المجال • وقد تطوعت هذه القيادات لرفض مطلب « الزواج المدني » وكذلك مطلب « شطب الطائفة عن بطاقة الهوية » • ولن يتوصل اليسار الى اقناع الجماهير من كل الطوائف بعلمانيته الا حين يتوصل الى تجاوز تلك الاصوات المتخلفة التي « اضاعت فرصة ذهبية » لتقد م البلد على حد تعبير كمال جنبلاط •

■■